الأسلام
في عصر العلم

تأليف

محمد فريد وجدي

الناشر
دار الكتاب العربي
بجمصر ابن

محمد فريد وجدي

الأسلام
في عصر العلم

دار الكتاب العربي

الإسلام
في عصر العلم

تأليف

محمد فريد وجدي

★

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت لبنان

الطبعة الثالثة

جميع الحقوق محفوظة

بيروت

الإسلام
في عصر العلم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

« الإسلام في عصر العلم » .. صيحة حق.. أطلقها المؤلف الأستاذ محمد فريد وجدي ليتردد صداها في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، بعد أن هاله طغيان المبادىء الإلحادية المادية ومحاولة دعاتها وفلاسفتها ، ترسيخها وتثبيتها ونشرها ، مغلّفة بمظاهر المدنية الحديثة البراقة ، هادفين القضاء على مبادىء وأخلاق الرسالات السماوية ، وعلى ديننا الحنيف بالذات .. متجاهلين أن المدنية الحديثة بجميع صورها ووسائلها يجب ألا تؤدي بالانسان إلا إلى الإيمان بقدرة الله عز وجلّ والتمسك بتعاليم الدين الحنيف ، التي تكفل للجميع حياة هادئة هانئة عزيزة مستقرة، في جميع العصور والأزمان .

ولقد بذل المؤلف جهداً عظيماً ، في كتابه هذا ، متناولاً بالتعليق والتفنيد كل ما يتشدق به أعداء الدين ، وموضحاً لشبابنا الحائر الذي خُدع حيناً بهذه الفلسفات والافتراءات ، طريق الحق والسعادة المثلى في ظل العقيدة الصافية والايمان الذي لا يتزعزع .

وان « دار الكتاب العربي » ، جرياً على عادتها في نشر كل قيّم ونفيس ، ليسرّها أن تقدم إلى قرائها في أنحاء العالمين الإسلامي والعربي ، هذه الطبعة الجديدة المنقحة من كتاب « الإسلام في عصر العلم » ، جامعة أجزاءه جميعها،

في هذا المجلد ، موضحة أقسام وأبواب الكتاب تقسيماً جديداً واضحاً ، تسهيلاً للقارىء واستكمالاً للفائدة .

ففي الباب الأول : « معرفة الانسان نفسه » ، يسهب المؤلف في الحديث عن حياة الانسان وتطوراته وأسباب شقائه وماهية سعادته وطريق الوصول اليها ، ثم عن الدين والدنيا ، كيف يتحدان وكيف يفترقان ، الى غير ذلك من الأبحاث المتعلقة بالانسان والتي يجد المرء نفسه دائماً متشوقاً الى معرفة حقائقها . وفي الباب الثاني « المدنية » ، يفرق المؤلف بين المدنية الحقيقية بمعناها السامي ، والمدنية الشكلية الزائفة كما يروّج لها البعض . وفي الباب الثالث « حياة خاتم المرسلين » محمد ﷺ ، يؤكد المؤلف أنه لا سبيل الى إصلاح حال المسلمين ولا طريق الى استردادهم مجدهم إلا بالرجوع الى الدين ودراسة هذا القلب السامي الذي أشرق فيه هذا الدين أول إشراقه .

أما في الباب الرابع : « ما وراء المادة » ، فالبحث عن الروح والخلود والبعث والحشر والعقاب والثواب ، وفي علاقتها جميعاً بالعلم والعرفان .

ثم ننتقل الى الجزء الثاني ، حيث يشرح المؤلف موقف الناس من العقائد وأقسامهم من حيث الإيمان بها والتكذيب لها أو الشك فيها ، ثم يتحدث عن إعجاز القرآن ، ثم يتناول أبحاثاً مختلفة متنوعة لا غنى لباحث أو متطلع الى معرفة حقائق ديننا الحنيف عن إدراكها .

ثم يصل القارىء الى الملحق الذي أضافه المؤلف وضمنه ردوده المسهبة على كل من وجه اليه سؤالاً أو استيضاحاً لأمر غمض اليه خلال قراءته للكتاب .

وإننا لنرجو للجميع التوفيق إلى كل ما فيه نصرة وعزة الدين القويم وازدهار الثقافة الإسلامية العربية ..

والله الموفق

الناشر

الجزء الأول

مقدمة المؤلف

للطبعة الثانية

ألفت هذا الكتاب وأنا في ميعة السن قريب عهد بدور التحصيل والدرس ، فهو أصدق كتاب يمثلني مناضلاً عن الفلسفة الروحانية والدين باعتبار أنهما الركنان القويان من أركان الاجتماع والترقي ، في أول أدواري وأنا أدفع بالدليل تلو الدليل اكتساباً للأنصار حول هذا الأصل ، وهو أن الجماعة التي أقامها الاسلام في أول عهدها بالوجود يجب أن يكون هو الذي ينعشها من كبوتها .

على هذا الأصل سرت في تأليف كتابي هذا ، راميا الى لفت نظر المتعلمين الذين فتنتهم فواتن الفلسفة الحديثة فتخيلوا أنها الطريق الوحيد لبلوغ الغاية القصوى من الرقي الانساني ، وإذا قلت الفلسفة الحديثة عنيت بها الفلسفة المادية التي تفرض أن الانسان حيوان راق وأن الغاية التي أمامه هي وصوله الى آخر ما تنيله إياه العلوم الكونية ، وما يعده استعداده لقبوله منها .

كنت في ذلك العهد أي منذ ثلاثين سنة قد أتممت جولة شاقة متعبة قد جلتها وأنا فتي السن وحيداً في متاهات خالية من الهداة والأدلة ، وفي وسط جماعات علمية لا تمت الى هذه المباحث بسبب ، فكنت أرتطم في الشبهة العلمية وأصلى نارها وحدي لا أجد من يهديني الى حلها ، ولا من يدلني على مقابلها ، فما كدت أخرج منها ، سليم الأيمان ، قوياً على النضال ، حتى ألقيت بنفسي من هذا الكتاب في مجال لا يحسر أن يقفه المقرمون الفحول ، فما ظنك بناشىء لا يزال من هو أسن منه في دور التعلم والتحصيل ؟

خضت من البحث في نفسية الانسان بحراً خضما ، فألقيت بنفسي بين أواذيه وليس لي من وسائل النجاة من طغيانها إلا عزمة قوية للوصول الى ساحله ، فلم أدع من عوامله الذاتية وعوامله الخارجية وروح العصر باباً للبحث إلا ولجته ، ولا كلاماً عن الدين والعقل والروح العلمية ومـا طوحت بي اليه من درس أول مناشئها وما أثر عن اليونانيين الأقدمين عنها . وما أتى به فلاسفتهم وحكماؤهم فيها ، وما أنتجته الحروب بين الفرس وبينهم من الآثار على العـلم والفلسفة ، وما أحدثته جامعة الاسكندرية من النهوض العلمي في العالم ، وما اقتضاه هذا الخوض من دراسة مذاهب الفلاسفة اليونانيين الخ الخ ، ثم الخروج من ذلك كله الى دراسة الروح الاسلامية ، والمثل الأعلى الذي أوجده رسول الله صلى الله عليه وسلم للانسان ، وما استدعاه ذلك من البحوث في ماهية الدين الفطري ، وعرض الأدوار التي تنتاب العقائد ، وكنه الفضيلة والرذيلة ، وغاية المدنية الاسلامية ، وما استتبعه هذا الدرس العميق من النظر في المادة وما وراءها ، والالمـام بالبحوث التجريبيـة التي يقوم علمـاء اوروبا في هذا العصر بهـا لإثبات العالم الروحاني الخ الخ ، إلا درستها درس تعمق ، فخرجت منها وأنا أشد إيماناً بصحة النتائج التي وصلت اليها مني بها قبل أن أخوضها ، فلم أشأ أن أختص بها فأخذت أدونها وأنشرها بين الناس حتى ملأت مجلدين ضخمين ، نالا من إعجاب القارئين قسطاً كبيراً ، فلم يمر عليها غير زمن يسير حتى نفدت طبعتها الاولى ، وانصرفت لخوض غمرات اخرى فأهملت إعادة طبعها سنين رغماً عن كثرة طلبها ، ومضت مدة كانت تكفي للتعفية على رسومه ، ومحو اسمه من الأذهـان ، غير أن الذين وعوا ذكراه كانوا لا يفتأون يلحون في إعـادة نشره ، فأمكننا الله من ذلك ويسره ، وها نحن نقدمه للقراء مطبوعاً أجمل طبع ، راجين من الله التوفيق فيما نتوخى من نشر الحقيقة ، وبث الفضيلة ، وتغذية الروح ، انه ولي الكفاية وهو المستعان .

محمد فريد وجدي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

للطبعة الأولى

أحمدك اللهم على أن هديتنا لدينك القويم ، وأقمتنا بكلامك القديم ، على صراتك المستقيم ، حمد عبد معترف بالقصور عن حصر آلائك مقر بالعجز عن توفيتك الشكر على جزيل نعمائك ؛ وصل اللهم وسلم على الانسان الكامل الذي بعثته بالنور الشامل والبرهان الفاصل ، فنصرت به الحق على الباطل ، وأقمت به وبأتباعه الأماثل ، ميزان حكمك العادل سيد الوجود محمد عبدك ورسولك خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين. آمين .

(أما بعد) فاني استخرت الله تعالى في وضع كتاب كبير الحجم أضمنه موجز أبحاثي في المواضع الفلسفية التي لها علاقة بالاسلام خصوصاً وبالدين المطلق عموماً ، وأريد من هذا العمل الشاق إقامة صرح مشيد للدين الاسلامي في هذا العصر الذي اشتهر بزعزعة أركان الأديان وهدم صروحا وتقويض أساطين المعتقدات ونسف قصورها . وسأتوخى ان شاء الله في بناء هذا الصرح

تسخير ذلك العلم الهادم للعقائد غير ذاهب بمدركاته مذاهب التعسف والتأويل ، ولا ناهج بمقدراته مخالج التكلف والتحريف . ولكني سأسير معها سيرها الطبيعي وأسلك بها مسلكها التحليلي . ولم لا يتفق العلم والدين ويكون الأول مؤيد الثاني وناصره ، وحاميه من شائبات الشكوك ومؤازره ، ما دام العلم منتزعاً من أشياء الكون والدين وحي من خالقه ؟ وهل يعقل أن يكون وحي سماوي مخالفاً لوضع طبيعي وكلاهما مستمد وجوده من خالق واحد تتنزه أفعاله عن التناقض وتتعالى إفاضاته عن التعارض ؟ بل الذي يخشى صولة العلم ويتهيب سطواته ، رجل يريد أن يعطف حقائق الكون على خيالاته ، وأن يرى نواميس الوجود مطابقة لوهمياته ، هذا هو الذي يرى العلم عدواً لدوداً ، فيصد عنه صدوداً ، ويكون أمامه حيوداً شروداً ، هذا هو الذي ان ذكر العلم بحضرته عبس وبسر ، وأدبر واستكبر ، وقال ان هذا الا قول البشر . أما المسلم فمتى عهدناه أحجم عن العلم أو تهيب ورده ؟ وأنّى رأيناه صدف عنه وخاف بطشه ؟ .

العلم في كل عصر ظهير الاسلام ومؤيده ، وناصر تعاليمه ومعضده . لم يسقط المسلمون الى ما هم عليه الآن إلا بلويهم عن العلم كشحاً ، وضربهم عن الخوض في مناحيه صفحاً ، ألم تر أن في كل دور من أدوار العلم كتباً للمسلمين اتخذت أرقى مدركاته سلاحاً للدفاع عن الاسلام وتأييده ، وجعلت أعضل مسائله آلة لتشييد صرحه وتوطيده ؟ فما الاشعري وابن تيمية والغزالي وغيرهم إلا من فرسان تلك الحلبة ، وأعلام ذلك الميدان ، وقد فازوا وفاز من اقتدى بهم في كل عصر على اعدائه فوزاً ليس بعده مطلب للمزيد . فلماذا لايكون هذا العلم نفسه في هذا العصر الأنور جارياً على سنته الطبيعية التي سارها مع الاسلام في كل عصر سابق ؟

أكبر سبب نراه لتراخي روابط الدين من قلوب بعض المتعلمين اليوم هو لا شك عدم استخدام القوام عليه العلم لتقرير حقائقه كما كانت هذه عادة آبائنا

الأولـــين، وسنتهم في نشر الدين، لهذا الاهمال ظن أولئك المتعلمون ان اسلحة الاسلام أقل مضاء من أسلحة علومهم الكونية ، فانتبذوا لأنفسهم مكاناً بعيداً عن اخوانهم في المدركات والعقائد .

نرى كثيراً من المتكلمين في الدين لا يسلكون في تأييد دعـاويه إلا مسلك القضايا المنطقية ، والفلسفة العقلية ، بينما يرى هؤلاء المتعلمون أنفسهم في عصر الفلسفة الحسية ، والبراهين الطبيعية التحليلية فكيف يقر هؤلاء لأولئك بزعامة ويعترفون لهم برئاسة وهم يريدون أن يلمسوا ما يعتقدونه أو يدركوه بصفـة تقرب من ذلك .

يقرأ هؤلاء المتعلمون من كتب الغرب ما يستدلون به على أن الانسان مترق من سلسلة حيوانية ، وان بينه وبين القردة والكلاب قرابة أصلية فتتكشط من أذهانهم بسبب هذه الشبهة الواحدة كثير من المدركات الدينية في أصل الخليقة ومنابع الأخلاق ووجود النفس وخلودها وحقيقة الفضيلة وليسوا من العلم بمكانة يستطيعون معها النظر في أدلة أولئك القائلين ومحاكمتها، فتلتاث أفكارهم بشبه لا يجدون أمامهم من أكثر القوام على العقائد رجالاً نصبوا أنفسهم لتحليل أمثال هذه المسائل التي طم بها العلم العصري وصار بذلك جائحة على ما يسمونـــه الدين : فلا يرى أولئك الشبـان إلا السكوت على مضض والجمود على هواجس تجيش في صدورهم ، وترغمهم على عدم التعلق بالدين لتوهمهم أنه أضعف من أن يقاوم هذا التيار الجارف الذي لم يترك أمامه سداً أثرياً الا هدمه ، ولا بـناء قديماً الا اكتسحه ، فيحسبون أنه في حركته هذه قـــد نسف صرح الاسلام أيضاً قياساً على غيره، ويفوتهم ان صرح الاسلام ليس مبنياً من آجر الخزعبلات متماسكة بطين الأوهام ، حتى يعدو عليه تيار أو يقابله في جريه اعصار « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

هذا هو السبب الأكبر في عدم تمسك أكثر المتعلمين منا بالدين ، وهروبهم من كل ما يشم منه رائحـة الدين ، وهم أنفسهم لو رأوا من المدافعين عنـــه قوم

حقيقية في حمايتهم لبيضتـه لكانوا أعز أبنائه وأقوى اعضائه . بناء على هذه الاعتبارات كلها رأينا أن نشرع في هذا العمل الشاق اقتداء بأسلافنا الاولـين الذين استخدموا علوم عصورهم للدين ، وسنجعل ان شاء الله عمدتنا في الدفاع عنه المقررات العلمية ، والمدركات الفلسفية الثابتة ، سالكين بها أقصد المسالك الاستقرائية والتحليلية ، غير تاركين فيما نظن هاجساً يهجس بالضمير بسبب أي مسألة من المسائل العلمية الحديثة التي لها ارتباط بالعقائد الا أتينا على تحليلهـــا وبيان الحقيقة منها مع البرهنة على أنها أقوى مؤيد لمدركات الاسلام وأشد ناصر لحقائقه ، حتى أن القـــارىء سوف يرى ان شاء الله ان ما كان يخاله في العلم الطبيعي ناسفاً لأصول الدين ومبدداً لفروعه أحسن مقرر لها وأمتن مثبت لبنائها وليس ذلك بعجيب ، فقد قال الله تعالى : سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد » « ولتعلمن نبأه بعد حين » وعندئذ يليق بنا أن نتمثل بقول الشاعر :

(أفلت شموس الأولين وشمسنا أبداً على أفق العلا لا تغرب)

وقد رأينا أن نقسم كتابنا هذا إلى أربعة أجزاء كل منها يشتمل على بحث قائم بنفسه ولكنها كلها ترمي إلى غاية واحدة هى إقامة أقوى الأدلة العلمية لتقرير « ان الدين عند الله الاسلام » .

سنتكـلم ان شاء الله في الجزء الأول على (الإنسان) ثم في الثـــاني على (المدنية) ثم في الثالث على (ما وراء المادة) ثم في الرابع على (حيـاة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم) أما مبحث (الانسان) فسنـــدرس فيه ان شاء الله الانسان من كل جهاته التي لها ارتباط بالدين والفلسفة . ولا يعجبن قارىء من تخصيص كتاب ضخم في موضوع الانسان وحده فان حقيقة الانسان أعوص مسائل الانسان ، وقد سهـــل عليه أن يدرس الكون ويستخـــدم كثيراً من نواميسه ، ولكن صعب عليه جداً درس نفسه والوقوف على سرها .

نحن لا نعني بدرس الانسان درس جثمانه فإنا لا نعد ذلك الهيكل اللحمي على ادهاشه للعقل وتحييره للفكر إلا جزءاً من الكون المادي الذي تغلغل الانسان في اكتشافه ، ولا نعني به أيضاً اكتناه سر روحه والوقوف على جوهرها : هيهات ذلك مما لا نطمع فيه ولا نسمح لعقولنا بالتطفل عليه ، ولكنا نريد به درس علاقاتنا بالوجود المحسوس وبوجود آخر نشعر به ونذوب شوقاً لمعرفته .

لو كان الانسان مدفوعاً بالفطرة إلى انتهاج سبيل خاص في أمور حياته كما هو الشأن عند سائر الحيونات لما كان ثمت حاجة إلى درس علاقاته بالوجود الا من جهة محدودة ، ولكانت سعادته تبعاً لذلك محصورة بحدود الدائرة التي حجر عليه تعديها ولكنه خلق مطلوق القوى مرخي العنان لا يدرك لسعادته حداً ، ولا يتخيل لكماله تخما ، كلما ارتقى في معارج احدى سعادته درجة لاحت له درجات ، وكلما جاز باحة تراءت له باحات ، وهو مع ذلك يجد من كنز فطرته مادة تمكنه من مداومة الجد والتعب ، ومن فيض مبدعه عوناً على معاناة النصب ، حتى سمح لنفسه أن يقول وقد جال في موامي المطالب وجاب ، وجاس في انحاء الكون فأخطأ وأصاب :

(ولكن قلباً بين جنبي ما له مدى ينتهي بي في مراد اجده)

الانسان في كل جولة من جولات معناه ، وفي كل جوبة من جوبات فكره ، حتى في كل همسة من همسات ضميره ، أو حركة من حركات وجدانه يحاول أن يستجلي جمال ذاته ، ويستكشف محيا سره ، ويستديم مع ذلك وجوده الشخصي على أكمل صفة يدركها في نفسه ، فهو لا يأكل أو يشرب ، ولا يلبس أو يتزين ، ولا يفكر أو يتدبر وبالاختصار لا يتحرك حركة مهما كانت بسيطة الا وهو مدفوع بدافع مبهم لتسجيل ذاته وشخصيته في سجل الوجود ، ونقش معناه في صفحاته نقشاً يأمن عليه العاديات من كل نوع .

مضى على الانسان زمن كان فيه قريب العهد بهذا المشهد المدهش (الدنيا)

فكان شغله بنفسه واهتمامه بدفع الطوارىء عنه ، مانعاً له من التفكر في كنه القوى التي تصرفه ، ولكن حدثت عليه أزمان بعد ذلك تم له فيها التغلب على المبيدات الفجائية فما شعر الا وضميره يطالبه بأمر جلل وخطب عظيم ، وإذا بصائح في فؤاده يصيح : ماذا أنا ؟ ما هذا العالم ؟ ما هي هذه المحسوسات التي تحتف بي من كل جانب ؟ ما هي علاقتي بها ؟ أين أنا ذاهب بعد فناء هذا الجسد ؟ أأتلاشى كما تتلاشى الأشياء أم أدوم في عالم غير هذا العالم وعلى شكل غير هذا الشكل ؟ الوجود قديم أم حديث ؟ إن كان قديماً فكيف وجد وان كان حديثاً فمتى وجد ولماذا وجد ؟ أهو أبدي لا يزول أم فانٍ لا بد له من أفول ؟ ان كان أبدياً فماذا يكون في المستقبل وبأي شكل يتشكل ؟ وان كان فانياً فإلى أين يذهب وما الذي يحل مكانه حين يعطب ؟ أيحل مكانه لا شيء أم الفضاء ؟ ما معنى لا شيء وما معنى الفضاء ؟ .

دعنا من هذا كله : فما هي المادة في ذاتها وما هي أسباب وجودها ودوامها وما هي عوامل رقيها وتدرجها ؟ كيف استحالت من تراب الى انسان ؟ وما هي الحياة وكيف نشأت في الجماد وما هو هذا العقل المكرم وكيف تولد في هذا الطين الأصم الأبهم ؟ ثم دعنا من هذا أيضاً وهلم نفتكر كيف نشأ الحيوان ووجد الانسان وتدرج في مراقي العرم فان ؟ كيف اهتدى وتصرف وكيف نما وتطور ؟

ثم دعنا من هذا؛ فما هذه النباتات ولم وجدت بهذه الاختلافات ؟ وما سبب تلوين أزهارها وتطييب أنوارها وتحلية ثمارها ؟ هل خلقت للانسان والحيوان ، أو هي عوالم مستقلة خلقت لذاتها ولها أغراض وقوانين ؟ كيف اهتدت الى ما فيه حياتها وتمتعت بما به بقاءها واستمرارها ؟ ثم ما هذه الحيوانات ولم اختلفت في الصور والهيئات وتنوعت في الأقدار والأحجام وتباينت في التراكيب والأجسام ؟ كيف نشأ فيها ذلك الالهام العجيب الذي يهديها لبناء مساكنها وتغذية صغارها والهيمنة على أحوالها وأمورها وأنى

اهتدت الى معائشها ووفقت لسبل غذائها وما يقيم أمر حياتها ؟ وما الانسان من بينها ؟ .

كل هذه المسائل جاشت في صدر الانسان وتراءت له على ما لا يعـــد من الصور على حسب المؤثرات التي أثرت على ذهنه ، والمناسبات التي أحاطت به في مكانه وزمنه ، واشتغل بها قديماً وحديثاً وبنى عليها علومه وصنائعه وأخلاقه وسجاياه ، وقاس عليها فضائله ومزاياه ، وشرع على موجبها قوانينه ، ونظم على مقتضاها عقائده ودينه ، وعلى قدر تمكنه من درسها وتدربه على فحصها والقرب من أسرارها فاز من وجوده بقسط من السعادة محدوداً ، ونال من حياته جزءاً مقدوراً .

فمنهم من حكم على وجوده بالحدوث والعدم ، ومنهم من قضى له بالبقـــاء والقدم . فجرى الأولون فيه على سمت شكلوا على مقتضاه علومهم وعقائدهم ، وسار الآخرون على طريق خالفوا فيه مناظيرهم على الجملة وبنوا عليـه علومهم وعقائدهم أيضاً ، وجرى الاثنان من قديم الزمن في حلبة واحدة كان السبق بينهما سجالاً فكان حكم العقل عليها في كل زمن يختلف عن سابقه ولاحقه مما لا يجوز أن نخفيه عن قرائنا اليوم .

قال الأولون بأن للوجود إلها لا نهاية لحوله وقوته ، وللانسان روحاً خالدة بعد موته ، وله فضائل مستمدة من دينه وعقيدته ، ولأعماله في هذه الدار صور تنتظره في آخرته ، وان الوجود وما فيه مسخر لسيطرته ، يجول في ضمائره بما تقتضيه امور مصلحته ، وتستدعيه مطالب سعادته ، جعلوا هذه العقائد تسلية للانسان في دار محنتة ، وروحاً يتنسمها في كربته ، وأملا يدفع بـــه اليأس في شدته .

أمـــا الآخرون فانغضوا رءوسهم سخرية وهزؤا ، وهزوا أعطافهم زهوا وعجبا ، ثم رفعوا عقيرتهم كـبراً وصلفاً وقالوا : هذه آثار الماضين وبقية من الأقدمين . فقد حكم العلم (معاذ الله) بأن نواميس الكون كافية في تعليل كل

ظواهره وقوانينه قد فسرت أكثر غوامضه ، فلا داعي لفرض وجود قوى وراء الطبيعة ، ولا موجب لتوهم عالم علوي وراء هذه المرائي المحسوسة . أما الوجود فقديم إن لم يكن بصورته فبمادته الأولية ، وأما القوى التي تصرفه فلا استقلال لها في ذاتها بل هي صفة هيولاه الأصلية . فلا مادة بلا قوة ولا قوة بلا مادة ، بل المادة نفسها مظهر من مظاهر القوة المتحركة في الأثير من الأزل . أما الانسان وما نسبتموه اليه من نفس مستقلة عن الجسد ، وما منحتموها من مزية الخلود بعد فنائه وتبعثر ذراته ، فمما تبطله الشواهد العلمية وتحيله البداءة التشريحية. فقد قرر العلم (معاذ الله) أنه لا فرق بينه وبين غيره من الكائنات السفلية ، ولا ميزة له على سواه من الأنواع الحيوانية بل ليس هو في ذاته الا حيواناً فاق في قوة التعقل غيره من بني نوعه ، على أن بني نوعه (الحيوانات) ليست محرومة من قسط مناسب من العقل والفطنة ، واذا أردت الدليل فدونك كتب حياة الحيوان تر من آثار الفكر ونتائج العقل ما يدلك تمام الدلالة على ان العقل ليس وصف الإنسان المميز ولا حد الانفصال بين العالمين الحيواني والانساني . فاذا نسبت للانسان روحاً مستقلة عن الجسد ومنحتها مزية الخلود والبقاء ، فلم لا تحكم هذا الحكم نفسه بالنسبة للحيوانات. أليس هذا من آثار المعلومات السابقة الناقصة حينما كان الناس لا يميزون بين ما يؤيده الحس والعيان وبين ما هو من قبيل الخيالات التي تنشأ في الوجدان بلا روية ولا امعان ؟

أما الفضائل التي تقرعون الآذان بها ، وتضربون وجوه مناظريكم بسلاحها، مدعين انكم قادتها وزعماؤها ، وأن بيدكم حلها وعقدها ، وان لكم حق السيطرة على الناس بها، فليست في الحقيقة تبعاً لتعليم من التعليم ولا حقاً لناس دون ناس، بل هي تابعة لنواميس طبيعية تظهر في الأمم الحية ظهور آثار سائر النواميس الأخرى ولا علاقة لها بدين البتة ، بل الدين مشتق منها ومتفرع عنها . الا ترى أن أكثر المتدينين بعداء عن الفضيلة مغمورون في غمرات الرذيلة؟ دونك الاحصائيات المدققة التي يستقصيها علماء الجرائم مثل (لومبروزو) و (فيريرو) و (سيرجي) وغيرهم ترى بعينك ان أكثر الجرائم صادرة من المتدينين الذين

يزعمون أن لهم ارتباطاً بالدين ، وغيرة على تعاليمه ثم انظر بعد ذلك للأمم التي تركت الأديان ، وجعلتها خبراً لكان والتفتت للمدنية والعلوم الطبيعية ، تر أنها قد دبرت أمورها ، ونظمت شؤونها ، فقامت على قطب الاستقامة والاستقلال ونحت منحى الكرامة والجلال ، وكشفت لها المدنية عن وجهها الباسم ، وتجلت لها الحضارة في شكلها الفاتن ، فسيطرت على الأمم الأخرى بعلومها وصنائعها ، وقهرتهم بقوتها وسطوتها ، كما أنها صارت بالنسبة اليهم علماً في فضائلها وآدابها ؟

إذا كان لا فضيلة بغير الدين ، وأنها مطابقة لذات التعاريف التي تكلفون أنفسكم باثباتها في كتب الأخلاق ، فما سبب هذه الآثار المدهشة للعقول المضللة للمدارك ؟ إذا كان الانسان كما تقولون خلق مستقلا وأنه من طبيعة علوية ، وأنه مستعد لأن يسمو بروحه إلى أرقى منصة للحياة الملكية ، فلماذا هبطتم وعلا عليكم أولئك الذين يزعمون ان الانسان من سلالة القردة وان بينه وبين الحيوانات أواصر من القربى ، ووشائج من الرحم ؟ إذا كانت الفضيلة كما تقولون لا تثبت للانسان بغير دين ولا تلتصق بضميره بأي عامل غيره ، فلماذا حرمتم من أصغر أنواعها ، وسبقكم في باحاتها أولئك الذين يقولون إن الفضيلة صفة من صفات الحياة الانسانية والرذيلة كذلك ، تنشأ الأولى عندما تكون شؤون تلك الحياة جارية على سمت طبيعي ملائمة لسنن الكون ، وتبرز الثانية في ضد تلك الحالة ؟

أما ما تزعمونه من أن لا قيام للأمم بغير الدين ، ولا نظام لهم سوى حبله المتين ، فمما لا نحتاج معكم فيه إلى كبير جدال ، ولا كثير قيل وقال ، فدونكم الأمم الغربية الكبرى قد بنت عظمتها بملاشاته ، وأقامت وحدتها بمنابذة أشياعه ، وتشتيت شمل أتباعه ، ومع ذلك فلها كل يوم في سجل المعالي أثر جديد ، وفي حدائق الفخار والمجد صرح مشيد ، فان كان الأمر كما تزعمون فما هذا الأثر المنعكس ، وما تفسير هذا الأمر الملتبس ؟ أليست كل هذا البراهين المحسوسة تدل على أنكم متمسكون بأقوال لا يقوم عليها من عالم الشهود شاهد ،

ولا ينهض لهـا من واقع الحوادث مدافع ! لا جرم أنكم تتأخرون ونتقدم ، وتخضعون ونتحكم ، ولا غرو إن علونا وسفلتم ، وعززنا وذللتم ، كما لا عجب ان استخدمنا نواميس الكون وأسرتكم ، واستدررنا خيرات الطبيعة وحرمتكم .

كل هذه الشُبه المتعاصية قد نشأت في وسط هذا العلم الأوربي ، ونبع سمهـا من بـين ذرات دسم هذه المدنية العجيبة . فالتاثت أكثر العقول بأقذارها ، وتسممت بسمومها، فدارت على محاورها، وجرت على مخالجها ، فتأدت إلى حال سندرسه هنا إن شاء الله درساً مدققاً .

هذه السموم بعينها سرت إلى أكثر أفراد شبيبتنا الاسلامية ، التي نهلت من دنّ العلوم الاجنبية ، فخلعتها عن مجموعها وذهبت بها مذهباً لا يجعلها مع هؤلاء ولا هؤلاء . وكفى أمة عجزاً أن لا يكون لشبيبتها وجهة .

حلت هذه الشكوك والشبه من قادة النشأة وزعماء التقدم في البلاد الأجنبية محلاً علياً ، جعلتهم ينبذون معتقداتهم ظهرياً ، ويجعلونها نسياً منسياً ، وأمراً فرياً، ولكن قام مقامها موقظاً لديهم غيرة قومية ، وحمية جنسية أو لغوية، لمت شعثهم ، وضمت أجزاءهم ، ولاءمت بين أميالهم حيناً ظنوا فيه امكان قيامهم بدون الدين ، بل زعموا أن مصدر رقيهم ، ومنبع نظامهم والتئامهم ومنشأ ألفتهم ووئامهم ، هدم تعاليمه وتذريتها في الهواء . ثم لما استقاموا على هـذه المفازة الخطرة حيناً من الزمان ورأى قادتهم ورؤساء معارفهم أن هذه خطة عوجاء، وسراب ليس وراءه ماء ، وانهم بالادمان على متابعة خطتهم هذه ملاقون الهلاك الملاشي والبلاء المستأصل والحاجة الكبرى التي تهدم عروش مدنيتهم ، وتطفىء نور حضارتهم ، وساعد هذا الأثر عندهم ما أحسته نفوسهم من الفراغ الموحش لفقـد العقيدة بمستقبل ارواحهم ، ومصير حياتهم ، حنت فطرهم إلى الدين الصحيح حنـين البائس ينتظر فرجة ، ويتنسم من روح الخلاص نسمة ، ولكن اين الدين ؟

كانت الفلسفة الحسية فلسفة الفيلسوف (أجوست كونت) واتباعه، القائلين بأن كل معقول لا يؤيده شاهد من الحس جاز أن يكون ضلالا، آخذة من الأفكار مكانة لا يمكن قلعها منها ، ولما كانت أسس الدين من عقيدة وجود الروح وخلودها في دار غير هذه الدار مما لا يمكن الاستدلال عليه بمحسوس جازت أن تكون ضلالا لا حقيقة له في الواقع ، فهي على حسب أسلوب هذا المذهب الكثير الأشياع من قبيل ما لا يمكن إثباته ، وما لا بد من عدم الخوض فيه. وما معنى دين بدون روح وخلود ونعيم وشقاء في دار بعد هذه الدار ؟ اذن كيف يمكن الاعتقاد بدين في عصرٍ هذه فلسفة بنيه وتلك مبادئها ؟ لكن الله أكرم من أن يخيب سائلا ، وارحم من أن يطرد عن بابه طارقاً . ارسل عليهم من جهة فلسفتهم هذه آيات تأخذ بالأعناق خضوعا ، وبالأبصار والبصائر دهشة وخشوعا ، فنشأت أبحاث سموها (ابنو تزم وما نيتيزم) التنويم المغناطيسي و (اسبر تزم) استحضار الارواح ، وغير ذلك استدل منها عليتهم على أن للإنسان روحا فانشؤوا مئات من المجلات والمجامع. وعقدوا لها المؤتمرات والمحافل. وألفوا فيها الكتب والرسائل . وبلغ عددهم من العلماء الاعلام، وقادة المعارف العظام ، والمحامين الأماثل ، والكتاب الفطاحل ، ما لا يقل عن عشرين مليوناً وكل يوم يزيدون على هذا . فهم لم يقعوا حتى نهضوا ، ولم يضلوا حتى كادوا يهتدون . ولكن شبيبتنا التي شربت من حوض علمهم ، وتشبحت في أذهانها صور معلوماتهم ، لم يشاؤوا ان يوسعوا دائرة معارفهم وكأنهم لم يعلموا أن ما يدرس في المدارس من العلوم الطبيعية والرياضية ليس الا قطرة من بحر لا تنقع صدى ، ولا تروي غلة ، بل كأنهم يعتقدون أن العلم واقف حيث هو عن عهد (لفوازيير) و (تورسلي) و (ماريوط) و (فولتا) وان باب الرحمة الالهية اغلق في وجه بني آدم والعياذ بالله ، فلا مرمى بعد مرماهم ولا مذهب بعد مذهبهم ! ثم نسوا ما تعلموه أيضاً ولم تحفظ ذاكرتهم منه الا شكلا مشوهاً ليس له أصل يعتمد عليه ولا ركن يرتكن اليه . فهم على مذهب (اجوست كونت) و (داروين) بدون أن يكلفوا أنفسهم معرفة ماهية مذهبها ولا

أصول نظرياتها ، وكأنهم كفاهم أن يكونوا (اجوستيين) و (داروينيين) أن يروا شيئاً من فلسفتها في بعض الكتب ليس آتيـــاً على أسلوب صحيح ، ولا سلك فيـــه كاتبه مسلك التحليل والاستقراء . ثم أنهم على فرض تعمقهم في مبادىء فلسفة هذا العصر وتغلغلهم في مناحيها تدقيقـاً وتمحيصاً ، لم يكلفوا أنفسهم النظر في ماهية الاسلام ليروا إن كانت مبانيه مما يهدمهـا مثل هذه النظريات أو بالعكس تقويها وتسندها .

نحن لسنا من أعداء المعارف الحقة ، ولا من أضداد فرع من فروع العـــلوم الأجنبية الصحيحة ، لأن الاسلام دين غايته العليا الحقيقية ، وغرضه الأسمى تخـــليص الانسانية مما ران على فطرتها من خبث الأوهام ، وقذر المعتقدات الباطلة ، ففايته وله المثل الأعلى كغاية مذاهب (اوجست كونت) و (باكون) وغيرهما في تنقية المدارك من أدران الباطل ، وأسلوبه أدق من أسلوبها واجمع للشرائط الموصلة للكمال الانساني من كل وجوه كما سيتضح لك ذلك عند إيراد تلك المذاهب ومقارنتها بالاسلام إن شاء الله .

سيشمل الجزء الأول من مؤلفنا هذا عدا عما سبق على كلام مشبع على حياة الانسان وتطوراته وأسباب شقائه ومناشىء بلائه وماهية سعـــادته وطريق الوصول اليها .

خلق الحيوان على حال لا يستطيع عنها محيصاً ، ولا يرتقي فوقها درجة ، وحصرت قواه العقلية والفكرية في دوائر لا يستطيع تعديها من تلقاء نفسه ولا بواسطة غيره ، ولكنه وهب في مقابل هـذا سوقاً طبيعياً يهـــديه إلى مصالح وجوده جملة وتفصيلاً ، حتى أنه ليأتي في تربية صغاره والعناية بها أموراً يعجز أكثر أفراد النوع الانساني عن معرفتها وإدراك أسرارها . فبينما ترى مثـلاً أن أكثر الأمهات والآباء من نوعنا الآدمي يقتلون أفلاذ أكبادهم باتخـامهم بالأغذية الدسمة قبل وصولهم إلى السن المناسب لتعاطيها ، ترى الهرة بجـانبهم لا تعطي صغارها شيئاً من المأكولات الدهنية إلا لما يبـلغون سناً معلوماً فتراها قائمـــة

بتربيتهم على سنة قويمة صالحة حتى يشبوا صحاح الأجسام سليمي البنية مستعدين لمكافحة العوارض من كل نوع . لا تجد فيهم عمياً ولا عمشاً ولا مهزولين ولا مما يكثر في صغار عالمنا الانساني وكباره ، وما ذلك إلا لأن الخالق جل شأنه فطرهم على قوانين حكيمة لا يتعدونها فهم يقضون حياتهم في سعادة مناسبة لهم تمام المناسبة . أما الانسان المفطور على غير هذه الفطرة فتراه جارياً على غير هذه السنة : تتناوله الجهالة من جميع جهاته ، من يوم ميلاده إلى يوم وفاته ، فتتقاسمه الأمراض والأوصاب ، وتتنازعه الأعراض والمعاطب حتى أن كثيراً من أفراده يموت على أتعس حالة بعد أن يكون قد عاش حياة كلها نكد وكدر ، ومضى عمراً كان عبئاً ثقيلاً على البشر . لِمَ هذا؟ هل خلق الانسان أحط من الحيوان ؟ هل متع الحيوان لجهاده الحيوي في العالم بأسلحة أمضى وانسب لنوال غايته من أسلحة الانسان ؟ هل كتب على الانسان الشقاء والبلاء وقضي عليه أن يمضي أيامه بين مزعجات الكون ومبيداته يقذفه تيار من المصائب ، ويتناوله آخر من النوائب ، وهو بينهما لا يكاد يستفيق حتى يغشى عليه ، ولا يتخلص حتى يوثق من رجليه ويديه ! فهل سألنا أنفسنا يوماً قائلين ما هو الانسان ، وما هي الحياة ، وما هي المصائب ، وما علاقتها بالانسان ، وما حكمتها ولم صبت عليه صباً دون غيره من الكائنات الأرضية وكيف التخلص منها إن كان يمكن منها الخلاص ، وهل الخلاص معقود بأهداب العلوم أو مرتبط بعلائق الدين ، ما هو الدين وما هي الدنيا ، كيف يتحدان وكيف هما ضروريان لحياة الانسان ، ما هي الفضيلة وما هي الرذيلة وما هو كنه ارتباطهما بالانسان ، هل الانسان مقصور على هذه الحياة فقط أم له عالم آخر بعد هذا الشكل المحسوس ، ما هو ذلك العالم وما هي نسبة الانسان اليه وعلاقته به ؟ .

هذه كلها أسئلة يرى كل إنسان نفسه شيقة إلى حلها ، مغرمة برفع الحجب عن حقيقتها ، وشوقه وغرامه هذان دليلان حسيان على أنه مفطور على البحث عليها ، ومتمتع من القوة بما يمكنه من الوصول الى معرفتها ، لأنه لو لم يكن مستعداً ومتأهلاً لها لما خلق الله تعالى فيه الميل اليها . فما له اذن مقصر عنها وواقف على